دور المرأة في النهضة المعرفية ببغداد في العصر العباسي (١٣٢ ـ ٣٣٤ هـ / ٧٥٠ ـ ٩٤٥ م)

اعداد

د . رباب ذياب عبد السامرائي

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين وعلى آلة وصحبه ومن سار على نهجه، ومضى على هديه، وتمسك بسنته إلى يوم الدين وبعد .

تعد دراسة التراث العلمي العربي الإسلامي من الدراسات التي تلقي الضوء على التطور التاريخي للعلوم العربية، وما أنجزته العقلية العربية في هذا الميدان من نتاج كبير ومهم للإنسانية جمعاء .

وإن دراسة التاريخ لهذه الجوانب المشرقة من التاريخ خلقت لنا كماً هائلاً من الخبرة التي أوضحت لنا كيفية وقدرة الأمة على أن تمثل نفسها في الزمن الماضي، ويمتد أثرها الكبير إلى الزمن الحاضر وضهور مرحلة جديدة يمكن الإضافة إليها والإبداع في جوانبها لأجل بناء كيان جديد يُضاف إلى كيان الأمة العربية الإسلامية، نستفيد من خلالها تجنب الوقوع في هاوية مظلمة .

والعصر العباسي الذي وصلت فيه الحضارة العربية الإسلامية إلى أعلى مراتب الرقي الإنساني المتعدد الناضج والسبب في ذلك يعود إلى أن العرب المسلمين كانوا مُحبين للعلم والمعرفة حباً عظيماً .

هو العصر الذي شهد التلاقح الفكري الذي أثر في انتعاش الثقافة الإسلامية وازدهارها وبلوغها حد النضج، ما أهلها لأن تصبح الثقافة العالمية السائدة والمؤثرة في مسار الحضارة البشرية .

وهذا العصر هو حقبة التوهج الحضاري وذروة العلوم في الشرق الإسلامي، في هذه الفترة من الخلافة العباسية والدول التي نشأت في داخلها، والتي أغنت تلك المرحلة حضارياً وثقافياً وعلمياً بشكل غير مسبوق .

كانت الشعوب والأمم والحضارات ضمن الدولة العباسية في مزيج انفتاحي سهل صعود المعايير الحضارية من علوم إنسانية مختلفة، والتي وصلتنا من خلال من عايشوا تلك الحقبة وعاصروا ذاك التقدم، وأكثرهم من الرحالة الذين طافوا المنطقة الشرقية الإسلامية وتركوا معلومات جدية ومعطيات وفيرة .

و تعد المرأة جزءاً لا ينفصل بأي حال من الأحوال من كيان المجتمع الكلي، كما انها مكون رئيسي للمجتمع، بل تتعدى ذلك لتكون الأهم بين كل المكونات، ٠وقد شغلت المرأة عبر العصور أدواراً مهمة، وكانت فاعلة ونشيطة في وضع القوانين والسياسات، وفي تسيير حركة الحياة السياسية .

ويعد دور المرأة في المجتمع مهماً جداً وذا أثر بالغ الوضوح، كما إنه دور حساس جداً، وإن تحديد دورها وابتذالها واستغلال قدراتها بشكل يفوق قدرتها واستنزافها يقود لضياع المجتمعات وتشتتها وهدمها لأسر وتقويض بنائها .

يتعدى دور المرأة من مجرد كونه تربية إلى كونه إعداداً لجيل يستطيع التعامل مع المجتمع، ويُحسن قيمة العطاء ويفهمها، فتقوم المرأة برفد أبنائها بالمهارات الاجتماعية كما توضح هم حقوقهم وواجباتهم ومنح الدعم النفسي لأفراد العائلة خاصةً في أوقات الشدائد بتثبيتهم واحتوائهم تصنع منهم اشخاصاً متزنين أصحاب قيم وأخلاق ترفع المجتمع وتعلو به، مما ينعكس على المجتمع ككل فقد ثبت على مر التاريخ بأن أي مجتمع لن يبلغ أي رقي حضاري من دون مشاركة فعالة من قبل المرأة، وإن ارتقاء المرأة واحترامها ارتقاء واحترام للمجتمع كله، وانحطاط المرأة وقمعها انحطاط وقمع للمجتمع كله، لهذا فمن المؤكد أن الحقب التي ارتقت فيها الحضارة العراقية كانت أيضاً حقب رقي ومشاركة فعالة من قبل المرأة العراقية، ويمكن ملاحظة هذه الحقيقة عن طريق معاينة الحقب المختلفة التي عاشها المجتمع العراقي في ظل الإسلام .

ومن هنا جاءت الرغبة بدراسة الدور الكبير للمرأة في بغداد في العصر العباسي أذ نجد دورها وأثرها يشمل جميع نواحي الحياة وقد بينا هذا الدور في ثنايا البحث الذي تضمن مقدمة مفصلة عن النهضة المعرفية ببغداد في هذا العصر مبحثين تضمن المبحث الأول دور المرأة في النهضة المعرفية في هذا العصر خاصةً في العلوم الدينية والزهد والتصوف والاعتزال والشعر، وفي المبحث الثاني بينت تمسك المرأة الحرة بالتقاليد العربية وممارسة بعض المهن من قبل الحرات والجواري كالكتابة والخط والغزل والمهن الأخرى الخاصة بالنساء .

المبحث الأول

دور المرأة في النهضة المعرفية ببغداد

لقد ازدهرت الحركة العلمية في بغداد بعد أن تحولت الظروف السياسية للخلافة العباسية وانتقالها من بلاد الشام إلى العراق فأهتم خلفاء بني العباس ومنذ العام ١٤٥ هـ وحتى نهاية القرن الرابع الهجري، وكان لهذا الازدهار عوامل ساعدت عليه ومنها تأسيس مدينة بغداد ونزوح العلماء إليها [١]، وأصبحت مناراً وحاضرة المسلمين، وفد عليها العلماء وطلاب العلم، وكان لموقع مدينة بغداد الجغرافي الأثر البالغ في ارتياد الناس إليها، وذلك لأن جميع القوافل التي كانت تأتي من خراسان تمر ببغداد وهي في طريقها من مكة المكرمة .

وأنجبت بغداد عدداً كبيراً من العلماء، نشأوا وترعرعوا على تربتها وعذوبة ماءها وغزارة علومها، ومنهم من انتسبوا لها ونهلوا من علم علمائها، وهم كُثر يصعب تعدادهم، وللمرأة فيه حظ وفير ودور بارز وبرز العديد منهن في المجتمع الإسلامي وخاصةً العصر العباسي(نطاق بحثنا) فهو عصر الازدهار الحضاري الذي شمل المرافق الحيوية

في المجتمع كافة وكان نصيب الثقافة والآداب في التقدم والازدهار عظيماً حتى صار الناس يقدرون الأشخاص بمقدار نصيبهم من العلوم والآداب ونالت المرأة قسطاً جيداً من ذلك التقدم لتساير تيار العصر فاستطاعت رغم ما فرض عليها من حجر وحجب في أكثر الأحوال أن تثبت جدارة واستحقاقاً وان تتبوأ منزلة ثقافية لا يستهان بها، لقد كان لا بد للفتاة كحد أدنى من التعلم أن تلقن مبادئ الدين وبعض الفنون المنزلية لتكون على بينة من أمور الدين والدنيا، أما بنات السراة والأغنياء فقد تجاوزن ذلك إلى تعلم القراءة والكتابة والموسيقى والآداب الاجتماعية والوقوف على أسرار المنطق وقرض الشعر، وكانوا يستعينون على تعليم البنات بالنساء المتخصصات ويشتد الاقبال عليهن وبخاصة المدرسات اللائي يثبتن جدارة ويتميزن بمتانة الخلق بالعلم والآدب .

ونجد ذكر للعديد من النساء الفضليات اللائي تميزن في جوانب معينة من العلم والمعرفة، وقد ترجم الخطيب البغدادي (ت: ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م) ١ لأثنين وثلاثين من النساء من أهل بغداد المذكورات بالفضل ورواية العلم فإلى جانب دور أمهات وزوجات الخلفاء في الحياة السياسية والعلمية كالخيزران (١٥٨ ـ ١٧٣ هـ / ٧٧٥ ـ ٧٨٩ م) زوجة الخليفة محمد المهدي وأم الخليفة موسى الهادي والخليفة هارون الرشيد تثقفت ثقافة جعلتها عاملاً من عوامل نشاط الحركة الادبية والعلمية في قصر الخلافة تقابل العلماء وتناظرهم، ويفد إليها الشعراء من شتى الأصقاع، وكانت تحض الخليفة المهدي على تشييد دور العلم ومكافأة الموهوبين، وأنشأت أولادها على حب العلم والعلماء والأدب والأدباء .

كما برز دور السيدة زبيدة (١٦٥ ـ ١٩٨ هـ / ٧٨١ ـ ٨١٣ م) زوجة الخليفة هارون الرشيد وأم محمد الأمين، التي اوتيت من العقل والعلم مما أهلها لأن يجعلها الجاحظ خلال حديثه عن مأثر الرشيد وعظمته ضمن الأمور التي أتيحت للرشيد مما لم

يتح لغيره، وعرفت عنها قدرتها على النظم والكتابة، وقد أُثرت عنها إشعار معروفة ورسائل وتوقيعات ووصايا تدل على القدرة البارعة والموهبة الفذة، مما يدل على براعة السيدة زبيدة في الجواب وسرعة البديهة ما ذكره الجهشياري إذ قال: (دخل الرشيد على أم جعفر (زبيدة) فقال لها: قد تهتك كاتبك سعدان فأعزليه، قالت: وبأي شيء تهتك ؟ قال: بالمرافق والرشا حتى قال فيه الشاعر:

صب في قنديل سعدا ن مع التسليم زيتاً

وقناديل بنيـــــه قبل أن تحفى الكميتا

فقالت له: وقد قال الشاعر في كاتبك ابي صالح أشنع من هذا، فقال: وما قال ؟ قالت: قال:

قنديل سعدان على ضوئه فرج لقنديل أبي صالح

تراه في مجلسه أخوصا من لمحه للدرهم اللائح

فقال لها: كذب على كاتبي وكاتبك ٢

ويُذكر أن الخليفة المأمون عندما تسلم رسالة من السيدة زبيدة تهنئه فيها بالخلافة بعد مقتل ولدها الأمين، قال بعد أن قرأها واطلع على ما فيها من بعد نظر وبلاغة وتعقل: (ما تلد النساء مثل هذه، فماذا ابقت في هذا الكلام لبلغاء الرجال ؟) ٣ .

وقبيحة (٢٤٧ ـ ٢٥٥ هـ / ٨٦١ ـ ٨٦٩ م) زوجة المتوكل وأم المعز، كما برز دور شغب (٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ / ٩٠٨ ـ ٩٣٢ م) أم الخليفة المقتدر بالله، نجد الدور الكبير دور للعديد من نساء العباسيين في جوانب الحياة المختلفة وأولها دورها في العلوم الدينية والزهد والتصوف والشعر وغيره .

أولاً: دور المرأة في العلوم الدينية

أسهمت المرأة الحرة في المجتمع العباسي في الحياة الثقافية وتبوأت منزلة لا يستهان بها على الرغم ما فرض عليها من حجر وحجاب ٤.

ومن أشهر النساء الحرائر اللواتي كان لهن وجود في العلوم الدينية أم عمر الثقفية (ت: ٢٤١ هـ / ٨٥٥ م) وهي محدثة معروفة روى عنها الكثير من الأعلام المشهورين كأحمد بن حنبل، وزينب بنت سليمان الهاشمية (ت: ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م) وكانت من أفضل النساء ومن ربات النفوذ والسلطان والعقل والرأي والفصاحة حدثت عن أبيها وروى عنها كثير .

وممن أشتهر بالحديث أم أحمد الأنصارية عبدة بنت عبد الرحمن وقيل أنها كانت محدثة ذات دين وفصاحة، حدثت عن أبيها وروى عنها محمد بن مخلد الدوري العطار (ت: ٣٣١ هـ / ٩٤٢ م) وسليمان بن أحمد الطبراني .

وسمانة بنت حمدان الأنبارية، وهي محدثة حدثت عن أبيها، روى عنها أبو بكر الشافعي وأبو القاسم الطبراني ٥ .

وأم عيسى بنت إبراهيم بن إبراهيم بن اسحاق الحربي (ت: ٣٢٨ هـ / ٩٣٩ م) امرأة فاضلة عالمة، تعنى في الفقه ٦

وأمة الواحد واسمها ستيتة (٣٧٧هـ / ٩٨٨ م) هي بنت القاضي المحاملي، حفظت القرآن الكريم، ودرست فقه الإمام الشافعي، والفرائض وحسابها والنحو وغير ذلك من العلوم وكانت تفتي وقد حدثت وكُتب عنها الحديث ٧ .

وأم الفتح أمة السلام بنت القاضي أبي بكر (ت: سمعت علماء عصرها وحدث عنها القاضي التنوخي وأثنى عليها ووصفها بالديانة والعقل والفضل ٨ .

ثانياً: دور المرأة في الزهد والتصوف

كان للتطور الشامل الذي حدث في العصر العباسي الأول أثره الكبير في انتشار ظاهرة الزهد وذكر الموت والحساب والعقاب والثواب، وما لبث الزهد أن اكتسب أبعاداً فلسفية وروحية وفكرية، واتخذ رسوماً وأنماطاً تحول معها إلى التصوف في العصر العباسي الثاني .

تعود ظاهرة الزهد إلى وجود طبقة معينة، استفادت من العصر العباسي الأول الذهبي مع تدفق الأموال عليها دون غيرها، لتعيش حياة الترف والبذخ والانحلال، مع ازدياد الجواري والقيان وانتشارهن في كل مكان وبالمقابل كانت ردة الفعل معاكسة تماماً، احدثت حركة مضادة لدى الذين حرموا الثروة والملذات ويئسوا من الحصول عليها، أو الذين أتوا من العقل والاتزان ما جعلهم ينكرون أعمال الطبقة المنغمسة في اللهو والمجون، وينادون برفض هذه الأعمال على الرغم من قدرتهم على الانغماس فيها، فأسهموا في توسع حركة الزهد، دون إغفال فئة من الطبقة المنغمسة في اللهو والمجون، ما لبثت أن رأت تفاهة ما هي فيه، فتولت إلى الزهد تبغي التوبة، وتبالغ في ذلك في الوقت الذي تطورت فيه العلوم وانتشرت، فتؤلف مدرسة دينية وفكرية وروحية جديدة عنواناً الزهد في العصر العباسي الأول والزهد في العصر العباسي الثاني ٩ .

وأشهر النساء في الزهد والتصوف: رابعة العدوية، آسيا البغدادية، آمنة الرملية، خزامى .

رابعة العدوية (ت ١٨٥ هـ / ٨٠١ م)

تعد رابعة العدوية ١٠ أبرز شخصية نسوية في العصر العباسي الأول أحدثت تحولاً مهماً في تقدم الزهد نحو التصوف الذي تكرس في العصر العباسي الثاني، فهي التي وضعت حركة الزهد على أعتاب الحب الإلهي فهي لا تعبد الله خوفاً من النار أو

طمعاً بالجنة، وإنما تعبده استغراقاً في الحب لذاته، ولم تكن رابعة العدوية وحيدة زمانها في الزهد، وإنما اشهرهن .

وهي صالحة مشهورة من اهل البصرة، ومولدها بها، كانت تصلي اكثر الليل، وتنام أقله فإذا وثبت من مرقدها خاطبت نفسها بقولها: يا نفس كم تنامين وإلى كم تنامين يوشك أن تنامي نومة لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور، وكان هذا دأبها دهرها حتى ماتت، ولما حضرتها الوفاة دعت خادمتها عبدة وقالت لها: يا عبدة لا تؤذني بموتي وكفنيني في جبتي هذه، وهي جبة من شعر وكانت تقوم فيها إذا هدأت العيون، فكفنتها عبدة في تلك الجبة وفي خمار صوف كانت تلبسه ١١ .

ومن شعرها قولها في الذات الإلهية:

يا سروري ومنيتي وعمادي وأنيسي وعدتي ومرادي
انت روح الفؤاد انت رجائي انت لي مؤنس وشوقك زادي
انت لولاك يا حياتي وأنسي ما تشتت في فسيح البلاد
كم بدت منه وكم لك عندي من عطاء ونعمة وأياد
حبك الآن بغيتي ونعيمي وجلاء لعين قلبي الصادي
ليس لي عنك يا حبيب براح انت مني مكمن في الفؤاد
إن تكن راضياً علي فإني يا منى القلب قد بدا إسعادي ١٢

آسيا البغدادية (ت: ٢٥٩ هـ / ٨٧٢ م)

برزت من الزاهدات المتصوفات في العصر العباسي الثاني وهي من ربات العبادة والزهد والتقى والصلاح، عكف عليها العام والخاص ١٣، وقيل أن عبد الله بن طاهر دعا إليها حينما علم بأمرها، فلزمت الصمت خمسة أيام بعد قدومها إليه فقال لها: أخرساء أنتِ ما لكِ لا تنطقين، فقالت: لا، ولكني أقول: ١٤

قالوا نراك تطيل الصمت قلت لهم ما طول صمتي من عي ولا خرس
الصمت أحمد في الحالين عاقبة عندي واحسن بي من منطق شكس
أأنشر البز في من ليس يعرفه أم أنثر الدر بين العمى في الغلس

آمنة الرملية

انقطعت للزهد والعبادة في العصر العباسي الثاني، وكان أكثر زهاد زمانها يترددون عليها، وحينما زارها بعضهم قالت لهم: ما شأنكم ؟ قالوا: نسألك الدعاء، فقالت: لو أن الخاطبين خرسوا ما تكلمت عجوزكم من البكم والكم ولكن الدعاء سنة، ثم تابعت: جعل الله قراركم من بيتي الجنة وجعل ذكر الموت بيني وبينكم على بال وحفظ علينا الإيمان وهو أرحم الراحمين ١٥ .

خزامى

عرف البلاط العباسي نوعاً من الزهد تلجأ إليه الجواري، اللاتي سبق أن ملأن الدنيا عبثاً ولهواً، حينما تشعرن بقرب الموت، وقد تمتد السنون ببعضهن، فتثار في نفوسهن بعض نزعات إلى الزهد والتوبة، كما حصل لخزامى .

كانت خزامى جارية مغنية محسنة وشاعرة ظريفة، نادمت ابن المعتز وهو حدث، ثم تركت اللهو والشراب بعدما تقدمت في السن، لتظهر الزهد والتوبة، حينما راسلها ابن المعتز مراراً، وتأخرت عليه قبل أن تجيبه أخيراً برسالة تشكره فيها، وتعتذر إليه اعتذاراً رقيقاً بعدما ولى شرخ الشباب وزجرتها ألسن الدهر عن المضي في سبيل اللهو والمجون ١٦، قالت فيها:

أتاني قريض يا أميري محبر حكى لي نظم الدر فصل بالشذر
أأنكرت يا أبن الأكرمين انابتي وقد أصفحت لي السن بالزجر
وأدبني شرخ الشباب ببينة فيا ليت شعري بعد ذلك ما عذري

ثانياً: دور المرأة في الاعتزال

نشأ الاعتزال في البصرة، مطلع القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي، ثم أنتشر في بغداد، فتكونت للاعتزال مدرستان: مدرسة البصرة وتمثل المدرسة النظرية، ومدرسة بغداد وتمثل المدرسة العلمية، وكان الباعث على إنشاء الاعتزال إن كثير ممن دخل الإسلام شكلاً وظاهراً من اليهود والمجوس، أثاروا الشكوك حول الإسلام، وهاجموه مستخدمين في ذلك الفلسفة اليونانية والمنطق اليوناني، فتسلح المعتزلة بسلاح خصومهم، مستفيدين من الفلسفة اليونانية التي صبغوها بصبغة إسلامية، وجادلوا خصومهم جدالاً علمياً ١٧ .

وكان التنوخي متمسكاً بالمعتزلة ويدافع عنها، فهو يثني عليهم كلما ورد ذكرهم، ويسميهم أهل الحق ١٨ .

قصة وحيدة تتعلق بالمرأة المعتزلية، وهي بعنوان (اللص والعجوز الجلدة أم الصيرفي)، ويصف التنوخي هذه العجوز بأنها: عجوز صالحة، كثيرة الصيام والقيام، وكان لها أبن صيرفي منهمك على الشرب واللعب، وبأنها معتزلية جلدة، وكان أبنها الصيرفي يعمل نهاراً، ويعود في المساء إلى منزله، حيث يضع كيس المال عند والدته، ثم يمضي الليل في أماكن اللهو والشرب، فراقبه أحد اللصوص ولحق به ذات يوم، ودخل وراءه إلى المنزل، دون أن يشعر به، وسلم الصيرفي كيس المال إلى والدته، وخرج ليلاً ،فبقيت وحدها، بعد أن خبأت كيس المال خلف الباب، ثم قامت إلى الصلاة، وقد فطنت إلى اللص واستمرت بالصلاة، وما ان دخل إلى الغرفة التي وضعت الكيس خلف بابها، حتى أقفلت عليه الباب حتى طلعت الشمس، وجاء أبنها فعرف خبرها، فمضى واحضر صاحب الشرطة وفتح الباب وقبض على اللص ١٩ .

ثالثاً: الشعر

كان للمرأة دور بارز في الحياة الأدبية التي عرفها المجتمع العباسي، ويعود ذلك الى البيئة التي عاشت فيها، ففي حين كانت الفتاة العادية تلقن بعض مبادئ الدين والفنون المنزلية التي تؤهلها لرعاية شؤون أسرتها، فقد كانت الفتاة الموسرة تتعلم القراءة والكتابة، وقرض الشعر، فضلاً عن العلوم الدينية، فلا غرو ان تبرز المرأة الحرة في الشعر ٢٠، امثال علية بنت المهدي تُذكر في الادب والغناء والشعر فكانت تجمع بين الذكاء والصوت الحسن والصنعة الموسيقية واستطاعت ان تتخطى الأغراض التي ألفت الحرائر القول فيها من رثاء ومديح إلى الغزل وصارت تسن احكام الحب وتستخلص خباياه، مما يدل على تطور روح العصر وتبدل المقاييس العامة، قالت:

بني الحب على الجور فلو انصف المحبوب فيه لسمج

ليس يستحسن في حكم الهوى عاشق يحسن تأليف الحجج

وقليل الحب صرفاً خالصاً هو خير من كثير قد مزج

اما ليلى بنت طريف الفارسة الشاعرة التي عرفها العصر العباسي تدخل الحروب لابسة عدتها وتحمل على الجيوش بعد أن قُتل أخوها الوليد بن طريف ولعل أشهر قصيدة لها قولها في رثاء أخيها: ٢١

فيا شجر الخابور مالك مورقاً كأنك لم تجزع على ابن طريف

عائدة الجهنية، عاتكة المخزومية، قطر الندى، و أم الشريف

علية بنت المهدي

وبرز دور الجواري في بغداد في العصر العباسي فهناك مجموعة من الجواري نظمن الشعر وتفوقن في النظم فيه، يحضر مجالسهن الأدباء ويتبارين مع فحول الشعراء، لكن للاسف تاريخ الأدب لم يحفظ لنا الكثير من نتاجاتهن .

وبرز منهن جاريتان شغلتا المجتمع العباسي وسيطرتا على تفكير كثير من الخلفاء والشعراء بما تملكانه من موهبة فنية في نظم الشعر ورواية للأخبار والأشعار وهما (عنان) جارية الناطفي و(عريب) جارية المأمون .

فقد كان للجواري تأثير أدبي على الأدباء انفسهم يتمثل فيما تثيره الجواري من عواطف في صدور الشعراء فتخرج على ألسنتهم شعراً جميلاً، ولهذا السبب انتشر شعر الغزل بصورة تفوق أي عصر، وانقسم إلى غزل عفيف وغزل ماجن، ومن أشهر القصص المعروفة على هذا الصعيد قصة (بشار بن برد وعبدة) و (قصة العباس بن الأحنف وفوز) وقصة (أبي العتاهية وعتبة) وقصة (ابي نؤاس وجنان)، فضلاً عن قصص اقل شهرة مثل قصة (ابراهيم الموصلي وذات الخال) وقصة (محمد بن أمية وخداع) .

المبحث الثاني

أولاً: تمسك المرأة الحرة بالتقاليد العربية

كان المجتمع العربي في العصر الأموي، يلفظ الموالي، ويستخف بأولاد الإماء، فحافظت المرأة العربية الحرة في هذا العصر إلى حد بعيد، على مكانتها داخل الاسرة وفي المجتمع الذي حافظ بدوره جهد المستطاع على التقاليد العربية، لا بد أن يفسح المجال أمام الأعجمي غير العربي للانصهار في عروبة المجتمع أو التأثير عليه ٢٢ .

وتغير الحال تماماً في المجتمع العباسي، فلم تعد المرأة العربية الحرة هي أم الخليفة الذي آثر عليها أبناء الجواري اللواتي تحولن زوجات للخلفاء ما يعني أن تيار الأعاجم أشتد في هذا العصر الذي غلب عليه النفوذ الفارسي والتركي وصار أقوى من امكانية الحد منه أو القضاء عليه، فأصبحت أم الخليفة إما رومية أو خوارزمية أو صقلية أو تركية أو بربرية، أي غير عربية .

تراجع دور المرأة العربية (الحرة) أمام الجواري اللواتي تربعن داخل القصور، أمهات خلفاء وزوجات خلفاء وشاعرات ومغنيات في مجالس الطرب والغناء فأصبحت مكانة المرأة الجارية تطغى على الحرائر، فقد كان لانتشار حياة البذخ والترف ولكثرة تدفق الجواري والاحتفاظ بالأجنبيات أثر واضح في التشديد في حجب الحرائر عن الرجال ٢٣.

وقد حافظت المرأة العربية الحرة على مكانتها ولم تزاول المهن التي تستدعي مجالسة الرجال أو الاختلاط، فكانت اكثر الأعمال موقوفة على الجواري والإماء، لعدم التحرج بالأذن لهن بمزاولة ما يستدعي مجالسة الرجال والتحدث معهم أو التنقل من مكان لأخر، بينما قلة من الحرائر اللاتي بلغن سناً لا يخشى عليهن فيه من مخالطة الرجال، شاركن في هذه الأعمال، فبرزت منهن الخطاطة والكاتبة، الحجامة، الغزل، الماشطة، غسالة الموتى، نائحة المأتم، والقابلة، وهذا يعني، أن المرأة كانت تتمتع بشيء من الاستقلال الاقتصادي ٢٤، ما وفر لها حرية بعض الأمور .

ثانياً: بعض الأعمال والمهن التي زاولتها المرأة في العصر العباسي

ومن أبرز هذه الأعمال:

١ . الخط والكتابة

كان الخط مظهراً من المظاهر الثقافية التي يستحسن توافرها في الجارية وكثيراً ما كان الشعراء والكتاب يتغزلون بجمال الجارية وحسن خطها في آن معاً٢٥، وتناول أبو بكر الصولي (ت: ٣٣٦ هـ / ٩٤٧ م) ذكر ما استحسن من خط الجواري أسوة بما ذكره من خط الكتاب ٢٦، وقد أمتحن الخليفة المعتضد بالله الجارية نبت في الكتابة فرضي بما ظهر له من أمرها ٢٧ .

وقال المأمون حينما رأى جارية من جواريه تخط خطاً حسناً:

وزادت لدينا خطوة حين اطرقت وفي اصبعيا اسمر اللون أهيف

وقال أحمد بنى صالح يصف جارية كاتبة:

(كان خطها اشكال صورتها وكان مدادها سواد شعرها، وكان قرطاسها اديم وجهها، وكان قلمها ببعض اناملها، وكان بناتها سحر مقلتها، وكان سكينها سيف الحاظها، وكأن قطعها قلب عاشقها)

٢ . الحجامة

اشتغلت المرأة في العصر العباسي حجامة للنساء، وقد يستفاد احياناً من المرأة الحجامة في أعمال التجسس ومعرفة أخبار المعارك لقاء أجر يمنحه لها المسؤولون في الدولة ٢٨ .

وأشار السرى الرفاء بقوله معزياً صديقاً له بزوجته الحجامة: ٢٩

وكاتبة اقلامها حين تنتضى حديد وأعناق النساء طروسها

٣ . الغزل

يعتبر الغزل من الأعمال التي كثيراً ما تقوم بها النساء الحرائر والجواري معاً، وهو من الأعمال التي استحبت للمرأة، لأنها ملهاة أمينة ومريحة، وقد حث الرسول محمد ﷺ على تعليم النساء الغزل وحببه اليهن بقوله: (نعم لهو المؤمنة في بيتها الغزل) ٣٠، وسأل احدهم أم سلمة قائلاً: (كلما اتيتك وجدت في يدك مغزلاً، فقالت انه يطرد الشيطان ويذهب حديث النفس) ، فقد كان الغزل مورد رزق جيد للمرأة تقضي به حاجاتها المختلفة ٣٠ للدنيا والدين، حتى جعله الإمام أحمد بن حنبل أحل رزق للمرأة، لها أن تحج به اذا شاءت ٣٢ .

. المهن الأخرى

هناك الكثير من الاعمال ورد ذكرها، فقد اشتغلت بعض النساء ماشطات ٣٣، أو خبازات ٣٤ في بيوت الأمراء والقادة والموسرين، كما اشتغلت بعض النساء غسالات

للموتى أو نائحات في المآتم ٣٥ ، أو دايات للنساء، وغيرها من المهن التي تفرضها الظروف الاجتماعية دون إغفال دور المرأة التي كانت تساعد زوجها في مهنته إذا ما اتخذ من بيته دكاناً له .

نستخلص من كل ما ورد أن المرأة في المجتمع العراقي في هذا العصر كانت تتمتع بشيء من الموارد الاقتصادية تدعم لها حرية التصرف وتقلل من التبعية التامة للرجل في النواحي الاقتصادية .

الخاتمة

بعد انتهاء كتابة هذا البحث لابد من أن اكتب خاتمة أبين فيها أهم النتائج والاستنتاجات .

يعد العصر العباسي حقبة التوهج الحضاري وذروة العلوم في الشرق الإسلامي، في هذه الفترة من الخلافة العباسية والدول التي نشأت في داخلها، والتي أغنت تلك المرحلة حضارياً وثقافياً وعلمياً بشكل غير مسبوق .

كانت الشعوب والأمم والحضارات ضمن الدولة العباسية في مزيج انفتاحي سهل صعود المعايير الحضارية من علوم إنسانية مختلفة، والتي وصلتنا من خلال من عايشوا تلك الفترة وعاصروا ذاك التقدم، واكثرهم من الرحالة الذين طافوا المنطقة الشرقية الإسلامية وتركوا معلومات جدية ومعطيات وفيرة .

وتعد المرأة جزءاً لا ينفصل بأي حال من الأحوال من كيان المجتمع الكلي، كما انها مكون رئيسي للمجتمع بل تتعدى ذلك لتكون الأهم بين كل المكونات، ٠وقد شغلت المرأة عبر العصور ادواراً مهمة، وكانت فاعلة ونشيطة في وضع القوانين والسياسات، وفي تسيير حركة الحياة السياسية .

ويعد دور المرأة في المجتمع مهماً جداً وذا أثر بالغ الوضوح، كما انه دور حساس جداَ، وإن تحديد دورها وابتذالها واستغلال قدراتها بشكل يفوق قدرتها واستنزافها يقود لضياع المجتمعات وتشتتها وهدمها لأسر وتقويض بنائها .

وقد برز دور المرأة في العلوم الدينية والزهد والتصوف، نستنتج من ذلك أنه لم تكن المرأة في العصر العباسي بعيدة عن الحياة العلمية و الثقافية، بل أسهمت فيها، وتبوأت منزلة لا يستهان بها، عبر دورها في العلوم الدينية والأدب والشعر .

وكان للتطور الشامل الذي حدث في العصر العباسي الأول أثره في انتشار ظاهرة الزهد التي ما لبثت أن تحولت إلى التصوف في العصر العباسي الثاني، فأسهمت المرأة الحرة في حركة الزهد والتصوف، على غرار اسهامها في الميادين الأخرى .

وتمسكت المرأة البغدادية الحرة بالتقاليد العربية في الظروف المستجدة في المجتمع العباسي الذي أصبح فيه الخلفاء يؤثرون الدواري اللواتي تحولن إلى زوجات للخلفاء ثم أمهات للخلفاء .

كما نجد دور للمرأة في الحياة الاقتصادية فمارست العديد من الأعمال وامتهنت العديد من المهن وكان دور الجواري اكبر بكثير من الحرات، ومن هذه الاعمال والمهن الخط والكتابة والحجامة والغزل كما اشتغلت بعضهن كماشطات أو خبازات في بيوت الأمراء والأغنياء، أو غسالات للموتى او نائحات في المآتم وغيرها من المهن .

المصادر

١ . الخطيب البغدادي، احمد بن علي بن ثابت (ت: ١٠٧١ هـ)، تاريخ بغداد، دار الغرب الإسلامي، ٣ / ٤٣٩ . ٤٤٤ .

٢ . الزبير بن بكار، عبد الله القرشي الأسدي المكي (ت: ٢٥٦ هـ)، الأخبار الموفقيات، تحقيق: سامي مكي العاني، ط ٢، عالم الكتب، (بيروت، ١٩٩٦ م)، ١ / ١٢٩ .

٣ . الصفدي، صلاح الدين بن أيبك بن عبد الله (ت: ٧٦٤ هـ)، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى، دار إحياء التراث، (بيروت، ٢٠٠٠ م)، ١٤، ١١٩ .

٤ . الأطرقجي، واجدة مجيد عبد الله، المرأة في أدب العصر العباسي، دار الرشيد، (بغداد، ١٩٨١ م)، ص ٤٦ .

٥ .الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ٣ / ٤٣٩ .

٦ . كحالة، عمر رضا ، أعلام النساء، ط ٢، المطبعة الهاشمية، (عمان، ١٩٥٩ م)، ٢ / ٢٦٠ .

٧ . الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ١٤ / ٤٤٢ .

٨ . الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ١٤ / ٤٤٢ . ٤٤٣ .

٩ . سوزي حمود، دور المرأة السياسي والثقافي والاقتصادي في البلاط العباسي الثاني، اطروحة دكتوراه، جامعة بيروت العربية، (كلية الاداب، ٢٠٠٨ م)، ص ٢١ .

١٠ . رابعة العدوية (ت: ١٨٥ هـ / ٨٠١ م): ولدت في أسرة فقيرة فذاقت مرارة الفقر والحرمان، قبل أن يجرفها تيار اللهو في البصرة، وما لبثت أن أفاقت من ذلك، واعتزلت الناس، لتطهر نفسها من شوائب الحياة المادية، زاهدة في ا–لحياة الدنيا وخيراتها، فأختارت حياة الحرمان والشظف، تنشد الاتصال الروحي بالله فصورت في شعرها مذهبها الزهدي القائم على الاستغراق في حب الذات الإلهية توفت سنة ١٨٠ هـ / ٧٩٦ م) وقيل سنة (١٨٥ هـ / ٨٠١ م) .ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٢ / ٢٨٦ ؛ بدوي، عبد الرحمن، شهيدة العشق الإلهي (رابعة العدوية)، مكتبة النهضة المصرية، ٠ (القاهرة، ١٩٤٨ م) .

١١ . عمر كحالة، أعلام النساء، ١ / ٧ .

١٢ . الصفدي، الوافي بالوفيات، ٩ / ٢٦٤ .

١٣ . عمر كحالة، أعلام النساء، ١ / ١٠ .

١٤ . الصفدي، الوافي بالوفيات، ٩ / ٢٦٤ .

١٥ . عمر كحالة، أعلام النساء، ١ / ١١ .

١٦ . الأصفهاني، ابو الفرج علي بن الحسين بن محمد الأموي (ت: ٣٥٦ هـ)، الأغاني، ط ٢، (بيروت ، ١٩٩٢ م)، ١٠ / ٢٩٤ .

١٧ . شبارو، عصام، القضاء والقضاة في العصر العباسي، دار النهضة العربية، (بيروت، ١٩٨٣ م)، ص ١٤٦ . ١٤٧ .

١٨ . التنوخي، القاضي أبو علي المحسن بن محمد (ت: ٣٨٤ هـ)، نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة، تحقيق: عبود الشالجي، دار صادر، (بيروت، ١٩٧١ م)، ٢ / ٢٠٧ .

١٩ . المصدر نفسه، ٢ / ٣٣٩ . ٣٤١ .

٢٠ . امل كوسة، دور المرأة في المجتمع العباسي من خلال كتاب القاضي التنوخي، اطروحة دكتوراه، الجامعة اللبنانية، (كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ٢٠٠٨ م)، ص ١٦٣ .

٢١ . أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ط ٣، دار الكتاب العربي ، (بيروت، ١٤٠٧ هـ)، ٤ / ٢٧٧ .

٢٢ . سوزي حمود، الدولة العباسية، ص ١٠٠ .

٢٣ . التنوخي، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، ٤ / ١٨٣ .

٢٤ . ابن الجوزي، ابو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت: ٥٩٧ هـ)، المنتظم في أخبار الملوك والأمم، تحقيق: محمد ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، (بيروت، بلا . ت)، ٥ / ١٢٧ .

٢٥ . الصولي، أدب الكتاب، المطبعة السلفية، (مصر، ١٩٢٢ م)، ص ٤٨ ـ ٨٩.

٢٦ . المصدر نفسه، ص ٥٠ .

٢٧ . واجدة الأطرقجي، المرأة في أدب العصر العباسي، ص ٥٣ .

٢٨ . المرجع نفسه، ص ٥٦ .

٢٩. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ٣ / ٤٩٤ .

٣٠ . الألباني، محمد ناصر الدين، ضعيف الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)، ط ٣، المكتب الإسلامي، (بيروت، ١٩٩٨ م) ١ / ٥٤٥ .

٣١ . الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ١٤ / ٤٣٦ .

٣٢ . السيوطي، المستطرف في أخبار الجواري، ص ٢١ .

٣٣ . ابن القيم الجوزية، أخبار النساء، دار المدى، (دمشق، ٢٠٠١ م)، ص ١٠٨ .

٣٤ . ابن الجوزي، المنتظم، ١٠ / ٩٦ .

٣٥ . الأصفهاني، الأغاني، ٤ / ٢٦ .